ممنوع حب المطر..

نضال عمر

فيروز تغني للحب في الصيف ... للحب في الشتاء ... لحروف ضائعة في رسالة حب قديمة تبعثرت اجزاؤها وابتلت بماء المطر الازرق .

والسماء في الخارج تمطر مطرا ازرق ممزوجا بفرح طفولي جميل ، وفي نفس الوقت ، في مدينة لم تنعم اطرافها بالهدوء ، كان هناك سجان يعبر ممرا مظلما يفتح نافذة تطل على وجوه مملوءة بالرطوبة يتحدث عن اقتراب موعد المقابلة مع الهواء ، ولا ينسى آن يذكرهم بان المقابلة ستكون قصيرة جدا لانه مشغول .

ـ وبماذا مشغول .

ـ بضيوف جدد يقبعون في بركة الماء البارد بانتظار ركلات الاحذية والانابيب البلاستيكية ، والسياط .

ويختلط الحابل بالنابل وماء البركة بماء المطر ، ساعتها تصبح رؤية الاشياء مرتجة عبر حبات الدمع الجالسة في العيون .

.. وفيروز ما زالت تغني للحب في الصيف ... للحب في الشتاء ... لحروف ضائعة في رسالة حب قديمة .

بدأت حبات المطر تداعب الوجوه بحنان ، تغسل عنها اثار الظلمة .. وانتابه شعور غريب لاول مرة يشعر بجمال المطر ، ولاول مرة يشعر بان للمطر رائحة لذيذة تخترق الاعصاب، وتسكن وتسكن في الاعماق .. في طفولته كان يكره المطر لان المطر يعني بالنسبة له ولكافة لاجئي المخيم بردا قارسا ، ورياحا قاسية لا تخجل ان تقطع حبال الخيام فتطير يلاحقها الرجال والنسوة والاطفال عبر بحيرات الطين ، يصل الطين الى الحلق احيانا . ويعود الرجال والنسوة والاطفال وفي عيون الجميع حزن وأسى ورغبة في الانفجار .

عندما غادر رفح لاول مرة كانت تمطر ايضا .. لكن مطرا رماديا ممزوجا بحزن اطفال رفح .. اقتربت والدته منه .. غمست شفتيها بحبات المطر العالقة على وجنتيه ، وقالت :

ـ اهتم بنفسك يا ولدي .. ما راحت غير علينا .. على الاقل ستكون بين عرب من لحمنا ودمنا .

لحم ودم ... ؟؟

ويختلط الحابل بالنابل ، واللحم بالدم ، يعود الحصار الذي يفرضه عناق الجدران مع القضبان العربية للسجان الذي لا يتكلم سوى لغة الضاد ، ولا يركل الا باحذية عربية .

★ ★ ★

الكل يردد مع فيروز ، ما عدا السجان ، حتى حبات المطر شاركتهم في هذا الفرح الانساني ، ونزلت الى فناء السجن ترقص على انغام الرحابنة . والصوت حنين يكبر ... يكبر .. حتى يصبح عملاقا يطغى على نعومة صوت فيروز وانوثتها يتحدى الجدران ، والاسلاك المكهربة ، يخرج الى الحرية .

وصوت اخر كان مزيجا من ركلات وسياط يتحدث عن الحرمان من مقابلة الهواء .

ـ لكننا لا نغني للثورة ولا للشيخ امام ، اننا نغني للمطر .

ـ الف مرة قلت لكم ممنوع الغناء .

ـ اننا نحب المطر ، ويجب ان نغني له .

ـ ممنوع حب المطر ايضا .

ممنوع ... ممنوع . سبق ان سمع هذه الكلمة كثيرا احس بانها تدخل في كل مكان تملأ فجوات النوافذ والابواب الحديدية . لقد قال له احد الحراس الذي ينتمي الى اسرة فقيرة :

ـ لقد منع مدير السجن امك من زيارتك ، وهو يعلم انها قادمة من الارض المحتلة .

صرخ بكل ما في اعماقه من قهر ..

ـ تستطيع منع امي من زيارتي .. تستطيع منعي من التحرك تحت سياطك .. لكنك لا تستطيع منعي من آن احب المطر .

ويجر من رأسه الى بركة الماء البارد ... وينسحب صوت فيروز الى مكان بعيد بعيد .. لا قيود فيه ، ولا شرايين محتقنة .. يبحث عن مدينة لا سجون فيها يتعب .. يتعب .. يجلس بانتظار ثورة قادمة ليغني للحب في الصيف ... للحب في الشتاء .. لحروف ضائعة في رسالة حب قديمة تبعثرت اجزاؤها وابتلت بماء المطر الازرق .

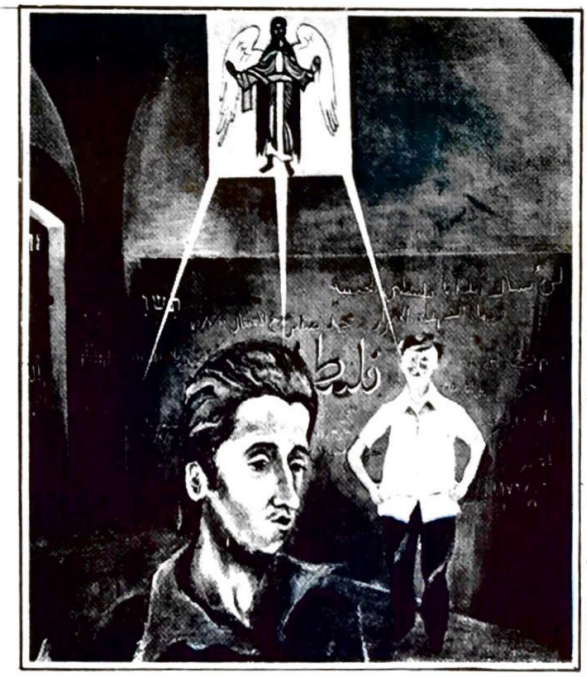

« غرفة الاعتقال في سجن المسكوبية في القدس ، منتصف آب ١٩٧٢ » لوحة زيتية ٤٦ × ٥٣ سم ، للفنان الفلسطيني « فلاديمير تماري » .